العجوزان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال محدِّثى : التقى هذان الشيخان بعد فراق أربعين سنة ، وكانت مثابتهما [1] ذلك المكانَ القائم على شاطئ البحر في اسكندرية فى جهة كذا . وهما صديقان كانا فى صدر أيامهما — حين كانت لهما أيام ... — رَجُلى حكومة يعملان فى ديوان واحد ، وكانا فى عيشهما أَخَوَىْ جد وهزل وفضائل ورذائل ، يجتمعان دائماً اجتماع السؤال والجواب ، فلا تنقطع وسيلةُ أحدهما من الآخر ؛ وكأن بينهما فى الحياة قرابة الابتسامة من الابتسامة ، والدمعة من الدمعة

ولبثا كذلك ما شاء الله ثم تبددا ، وأخذتهما الآفاقُ كدأب (الموظفين) ينتظمون وينتثرون ، ولا يزال أحدهم ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، وكأن «الموظف» من تفسير قوله تعالى : « وما تدرى نفسٌ بأى أرض تموت »

وافترق الصديقان على مضض ، وكثيراً ما يكون أمر الحكومة بنقل بعض (موظفيها) — هو أمرها بتمزيق بعضهم من بعض ؛ ثم تصرَّفت بهما الدنيا فذهبا على طرفى طريق لا يلتقيان ، وأصبح كلاهما من الآخر كيومه الذى مضى ، يُحفظ ولا يُرى

* * *

قال المحدِّث : وكنت مع الأستاذ (م) ، وهو رجل فى السبعين من عمره ، غير أنه يقول عن نفسه إنه شابٌّ لم يبلغ من العمر إلا سبعين سنة ... ويزعم أن فى جسمه الناموسَ الأخضر الذى يحيى الشجرة حياة واحدةً إلى الآخر

رجل فارهٌ ، متأنق ، فاخر البزّة ، جميلُ السَّمْت ، فارعُ الشَّطاط [2] كالمصبوب فى قالب لا عوج فيه ولا انحناء ، مجتمع كله لم يذهب منه شىء ، قد حفظته أساليبُ القوة التى يعانيها فى رياضته اليومية . وهو منذ كان فى آنِفَتِه وشبابه لا يمشى إلا مستأخر الصدر [1] ، مشدود الظهر ، مرتفع العنق ، مسنداً قفاه إلى طوقه ؛ وبذلك شب وشاب على استواء واحد ، وكلما سئل عن سر قامته وعوده لم يزد على قوله : إن هذا من عمل إسناد القفا [2] ....

وهو دائماً عَطِرٌ عبق ، ثم لا يمسّ إلا عطرا واحدا لا يغيره ، يرى أن هذا الطيب يحفظ خيال الصبى ، وأنه يبقى للأيام رائحتها

وله فلسفة من حسّه لا من عقله ، ولفلسفته قواعد وأصول ثابتة لا تتغير ؛ ومن بعض قواعدها الزهر ، ومن بعضها الموسيقى ، ومن بعضها الصلاة أيضاً . وكل تلك هى عنده قواعد لحفظ الشباب . ومن فلسفته أن مبادئ الشباب وعاداته إذا هى لم تتغير اتصل الشبابُ فيها واطَّرد فى الروح ، فتكون من ذلك قوة تحرس قوة اللحم والدم ، وتمسك على الجسم حالته النفسية الأولى

وهو يزيد فى حكمة الصلاة فكرةً رياضيةً عملية لم ينتبه إليها أحد ، هى رياضة البطن والأمعاء بالركوع والسجود والقيام ؛ ويقول إن ثروة الصلاة تُكْنَز فى صندوقين : أحدهما الروح لما بعد الموت ، والآخر البطن لما قبل الموت . ويرى أن الاسلام لم يفرض صلاة الصبح قبل الشمس إلا ليجعل الفجر ينصبُّ فى الروح كل يوم

* * *

قال المحدِّث : وبينما نحن جالسان مرَّ بنا شيخٌ أعجفُ مهزولٌ موهونٌ فى جسمه ، يَدْلُفُ متقارِبَ الخطوْ كأن حِمل السنين على ظهره ، مُرْعَشٌ من الكِبَر ، مستقدِمُ الصدر منحنٍ يتوكأ على عصا ، ويدل انحناؤه على أن عمره قد اعوجَّ أيضاً . وهو يبدو فى ضَعفه وهُزاله كأن ثيابه ملئت عظاماً لا انساناً ، وكأنها ما خيطت إلا لتمسك عظما على عظم . . .

قال : فحملق اليه (م) ثم صاح : رِينا ، رِينا . فالتفت العجوز ، وما كاد يأخذنا بصره حتى انفتل الينا وأقبل ضاحكا يقول : أوه رِيت ، رِيت

ونهض (م) فاحتضنه وتلازما طويلا ، وجعل رأساهما

---

(١) أى المكان الذى اجتمعا فيه بعد التفرق (٢) ممتد الطول

(١) يقال مستقدم الصدر للهرم المحنى الظهر ، فأخذنا منها مستأخر الصدر ، وذلك بروزه حين يكون مشدودا ، فيكون أعلاه إلى الوراء

(٢) هذه حقيقة رياضية ، ولها أقوى الأثر فى شد الجسم وانتصاب القامة إذا اعتادها الانسان . والمراد بالطوق الضيقة (الياقة)

بدوران ويتطوّحان ، وكلاهما يقبل صاحبه قبلاً ظامئة لا عهد لى بمثلها فى صديقين ، حتى تخيّل إلىّ أنهما لا يتعانقان ولا يتلاثمان ولكن بينهما فكرة يعتنقانها ويقبلانها معاً . . .

وقلت : ما هذا أيها العجوزان ؟

فضحك (م) وقال : هذا صديق القديم (ن) تركته منذ أربعين سنة معجزةً من معجزات الشباب ، فها هو ذا معجزة أخرى من معجزات الهرم ، ولم يبق منه كاملاً إلا اسمُه . . .

ثم التفت اليه وقال : كيف أنت يا رينا ؟

قال العجوز (ن) : لقد أصبحت كما ترى ؛ زاد العمر فى رجلىّ رجلاً من هذه العصا ، ورجع مصدرُ الحياة فىّ مصدراً للآلام والأوجاع ، ودخلت فى طبيعتى عادة رابعــــة من تعاطى الدواء

فضحك (م) وقال : قبح الله هذه الدخيلة ، فما هى العادات الثلاث الأصلية ؟

قال العجوز : هى الأكل والشرب والنوم . . . ثم أنت يا ريت كيف تقرأ الصحف الآن ؟

قال (م) : أقرؤها كما يقرؤها الناس ، فما سؤالك عن هذا ؟ وهل تقرأ الصحف يوما غير ما تقرأ فى يوم ؟

قال : آه ! إن أول شىء أقرأ فى الصحف أخبارُ الوفَيات لأرى بقايا الدنيا ، ثم (اعلانات الأدوية) . . . ولكن كيف أنت ياريت ؟ إنى لأراك ما تزال من وراء أربعين سنةً فى ذلك العيش الرّخِىّ ، وأراك تحمل شيخوختك بقوة كأن الدهر لم يحزُمْك من هنا ولا من هنا ، وكأنه يلمسك بأصابعه لا بمساميره ، فهل أصبت معجزة من معجزات العلم الحديث ؟

قال : نعم

قال : ناشدتك الله ، أى معجزات العلم الحديث معجزةٌ لعظمى ؟

قال (م) : ويحك يا رينا . إنك على العهد لم تبرح كما كنتَ مزبلة أفكار . . . ماذا يصنع فيك العلم الحديث وأنت كما أرى بمنزلة بين العظم والخشب . . . ؟

* * *

قال المحدث : وضحكنا جميعاً ثم قلت للأستاذ (م) : ولكن ما (رينا وريت) وما هذه اللغة ؟ وفى أى معجم تفسيرُها ؟

قال : فتغـامَزَ الشيخان ، ثم قال (م) : يا بنى هـذه لغة ماتت معانيها وبقيت ألفاظها ، فهى كتلك الألفاظ الأثرية الباقية من الجاهلية الأولى

قلت : ولكن الجاهلية الأولى لم تنقض إلا فيكما . . . ولا يزال كل شاب فى هذه الجاهلية الأولى ، وما أحسب (رينا ، وريت) فى لغتكما القـديمة إلا بمعنى (سوسو ، وزوزو) فى اللغة الحديثة ؟

فقال (م) : اسمع يا بنى . إن رجل سنة ١٩٣٥[1] متى سأل فىّ رجل سنة ١٨٩٥ : ما معنى رينا وريت ؟ فرد عليه : إن (رينا) معناها (كاترينا) ؛ وكان (ن) بها صباً مغرماً ، وكان مُقتَتَلاً قتله حبها . أما (ريت) فهو لا يعرف معناها

فامتعض العجوز (ن) وقال : سبحان الله ، اسمع يا بنى ! إن رجل سنة ١٨٩٥ فى يقول لك : إن (ريت) معناها (مرغريت) وكانت الجوى الباطنَ ، وكانت اللوعةَ والحريق الذى لا ينطفىء فى قلب الأستاذ (م)

قلت : فأنتما أيها العجوزان من عشاق سنة ١٨٩٥ فكيف تريان الحب الآن ؟

قال العجوز (ن) : يا بنى إن أواخر العمر كالمنفى . . . ونحن نتكلم بالألفاظ التى تتكلم بها أنت وأنتما وأنتم ... غير أن المعانى تختلف اختلافاً بعيداً

قلت : واضربْ لهم مثلاً

قال : واضرب لهم مثلاً كلمة (الأكل) فلها عنـدنا ثلاثة معان : الأكل ، وسوءُ الهضم ، ووجع المعدة ... وكلمة (المشى) فلها أيضاً ثلاثة معان : المشىُ ، والتعب ، وغمزاتُ العظم . . . وكلمة (النسيم) ، النسيم العليل يا بنى ؛ يزيد لنا فى معناها تحرك (الروماتزم) . . .

فضحك (م) وقال : يا « شيخ » . . .

قال العجوز : وتلك الزيادة يا بنى لا تجىء إلا من نقص ، فهنا بقيةٌ من يدين ، وبقية من رجلين ، وبقية من بطن ، وبقية من ومن ومن ، ومجموع كل ذلك بقية من انسان

قال الأستاذ (م) : والبقية فى حياتك . . .

---

(١) كانت هذه القصة فى صيف سنة ١٩٣٥ فى اسكندرية

قال (ن) : وبالجملة يا بنى فان حركة الحياة فى الرجل الهرم تكون حول ذاتها لا حول الأشياء ؛ وما أعجب أن تكون أقصر حركتى الأرض حول نفسها كذلك ، وإذا قال الشاب فى مغاضبته : ليمض الزمن ولتنصرم الأيام ، فان الأيام هى التى تنصرم والزمن هو الذى يمر . أما الشيوخ فلن يتمنّوه أبداً . فمن قال منهم : ليمض الزمن فكأنما قال فلأمض أنا . . .

فصاح (م) : يا شيخ يا شيخ . . .

ثم قال العجوز : واعلم يا بنى أن العلم نفسه يهرم مع الرجل الهرم فيصبح مثله ضعيفاً لا غناء عنده ولا حيلة له ، وكل مصانع لتكثير ومصانع بنك مصر واليابان والأمريكتين ، وما بقى من مصانع الدنيا ، لا فائدة من جميعها فهى عاجزة أن تكسو عظامى . .

* * *

قال المحدث : فقهقه الاستاذ (م) وقال : كدتُ والله أتخشّب من هذا الكلام ، وكادت معانى العظم تخرج من عظامى . لقد كان المتوحشون حكماء فى أمر شيوخهم ، فاذا علّت السنُّ بجماعة منهم لم يتركوهم أحياءً إلا بامتحان ، فهم يجمعونهم ويلجئونهم الى شجرة غضة لينة المهزّة فيكرهونهم أن يصعدوا فيها ثم يتدلّوا منها وقد علقت أيديهم بأغصانها ؛ فاذا صاروا على هذه الهيئة اجتمع الأشداء من فتيان القبيلة فيأخذون بجذع الشجرة يرجونها وينفضونها ساعة من نهار ؛ فمن ضعفت يداه من أولئك الشيوخ أو كلّت حوامل ذراعيه فأفلت الغصن الذى يتعلق به فوقع ، أخذوه فأكلوه . ومن استمسك أنزلوه فأمهلوه الى حين

فاقشعر العجوز (ن) وقال : أعوذ بالله هذه شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، ولعنها الله من حكمة ، فانما يطبخونهم فى الشجرة قبل الأكل ، أو هم يجعلونهم كذلك ليتوهموهم طيورا فيكون لحمهم أطيب وألذ ، ويتساقطون عليهم من الشجرة حمائم وعصافير

قال (م) : إن كان فى الوحشية منطق فليس فى هذا المنطق « باب لِمَ » ، ولا (باب كيف) ، ولو كان بهم أن يأكلوهم لأكلوهم ، غير أنها تربية الطبيعة لأهل الطبيعة ؛ فان رؤية الرجل هذه الشجرة وهزّها وعاقبتها يبعد عنه الضعف والتخلخل ، ويدفعه الى معاناة القوة ، ويزيد نفسه انتشارا على الحياة وطمعاً فيها وتنشّطا لأسبابها ، فيكون ساعدُه آخر شىء يهرم ، ولا يزال فى الحِدّة والنشاط والوَثبان ، فلا يعجز قبل يومه الطبيعى ، ويكون المتوحشون بهذا قد احتالوا على الطبيعة البشرية فاضطروها الى مجهودها ، وأكرهوها على أن تبذل من القوة آخر ما يسع الجسم

قال (ن) : فَنِعم إذَنْ ، ولعن الله معانى الضعف . كدت والله أظن أنى لم أكن يوماً شاباً ، وما أراك إلا متوحشا تخاف أن تؤكل فتظل شيخاً رجلا لا شيخا طفلا ، وترى العمر كما يرى البخيل ذهبه مهما يبلغ فكثرته غير كثيرة

* * *

قال المحدث : وأضجرنى حوارهما إذ لم يعد فيه إلا أن جسم هذا يرد على جسم هذا ؛ وإنما الشيخ من أمثال هؤلاء زمان بتكلم ويقص ويعظ وينتقد ، ولن يكون الشيخ معك فى حقيقته إن لم ترحل أنت فيه إلى دنيا قديمة . فقلت لهما : أيها العجوزان ! أريد أن أسافر إلى سنة ١٨٩٥ . . .

(لها بقية) (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

إلى م . ش : يا بنى إن الزبال يتزوج ويعيش ويهنأ ما دام فى طبقته وحقيقته ، فاذا خرج من هذه الطبقة وتسامى عن هذه الحقيقة وقال سأنتظر ، بقى طول عمره ينتظر . وكل شاب عزب تراه فهذه علته : زبال يطمع فى بنت أمير ... وهو لا يدرى أنه زبال . ينتظر العصفور حدأة ، أتصغر الحدأة أم يكبر العصفور ...؟ الرافعى

أصدرت مكتبة الجيب

الرحيل

رجل

لمحمود البدوى

من القصص التحليلى الرائع

وتطلب من مكاتب القاهرة الكبرى

وثمن الكتاب قرشان

عدا أجرة البريد